الحركات وحروف المد واللين بين القدماء والمُحْدَثين

د.سعيد شواهنة*

[illegible]

ملخص

يتناول هذا البحث دراسة الحركات وحروف المد واللين بين القدماء والمحدثين. ويتتبع مصطلح الحركات، وأصالته، ودلالته عند علماء اللغة القدامى وما له من قيمة وظيفية.

تشكل الحركات مرتكزا رئيسا في البنية اللغوية، لما لها من قدرة على تغيير الدلالة المعجمية، والصيغة الصرفية.

لم تكن دراسة الحركات عند علمائنا القدامى محورا رئيسا، لأنها ليست من هيكلية الجذر، فكان اهتمامهم منصبا على دراسة الهيكلية الصامتية.

وهذا لا يعني عدم معرفتهم للحركات، لكنهم تعاملوا معها من ناحية نحوية. لقد خلط القدماء في توصيف الحركات من جهة وحروف اللين من جهة أخرى، وكان لهذا الخلط الأثر البين في توجيه الدراسات الصرفية وتوجيه السلوكيات الصرفية الوجهة غير الصائبة. بل نجدهم في كثير من الأحيان يطلقون مصطلح المد على أصوات اللين والعكس.

ويقارن البحث بين نظرة علماء اللغة القدامى والمحدثين في توصيف الحركات وحروف اللين، ويبحث أسباب الفرق في هذا التوصيف بين نظرة كلا الفريقين.

Abstract

This research includes both the short and the long vowels in the Arabic language for both the ancient and modern linguists and how to deal with these two forms described as phonemes that can change the meaning. The ancient linguists mixed up in describing them. They usually gave them the same definition although there is an acoustic and phonological difference between them.

This mixing up let to wrong explanation for morphological analysis. vowels are considered the main centre in the linguistic. But this part was neglected by the ancient linguistic except which was serving the linguistic structure.

الحركات وحروف المد واللين بين القدماء والمحدثين:

أولاً: الحركات عند القدماء

لم يتطرق القدماء إلى الحركات بوصفها أصواتاً تقوم بدور رئيس في البنى الصرفية، وإنما كان الاهتمام منصباً على الحركات من الناحية الإعرابية، والمتتبع لكتب التراث اللغوي يلاحظ أن مصطلح الحركات لم يذكر في بدايات الدرس اللغوي، وللوصول إلى شيء من هذا لا بد لنا من البحث عن تطور المصطلح عند علماء اللغة القدامى.

يبدو أن النطق القرآني كان له الأثر الأكبر في ولادة الحركات، والاهتمام بها، علاوة على ظهور اللحن في ألسنة بعض الناطقين بالعربية، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن الحركات باعتبارها وقائع نطقية كانت موجودة كغيرها من الأصوات، إذ لا نستطيع أن نتكلم بأصوات ساكنة، فلا بد من الحركة في أثناء الكلام. وقد ذهب إلى هذا كمال بشر حيث يقول: «أما الحركات قبل أبي الأسود والخليل فكانت تستنتج استنتاجاً بمساعدة السياق»[١].

وكان اختلاط الأمم غير العربية مع العرب عاملاً رئيساً في ظهور اللحن؛ لأن تعلمهم اللغة العربية لم يكن من خلال الفصيح، بل من خلال اللهجات السائدة في التعامل اليومي، وليس سهلاً على صاحب اللسان غير العربي أن يتقن ما يسمع؛ لذلك ظهر اللحن، ووصل إلى القرآن الكريم، من حينها بدأ الاهتمام بالحركات لوضع حد لهذه المعضلة. وقد انطلقت هذه البداية عند ابن النديم حين قال: «أخذ النحو عن علي بن أبي طالب أبو الأسود الدؤلي، وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن علي... فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه، فأتى بآخر فقال أبو الأسود: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف. وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف»[٢].

من خلال هذا التوجيه نلحظ أن أبا الأسود وضع الشكل الأول للحركات من حيث الكتابة، ولكنه لم يتعرض لها من الناحية الصوتية إلا من خلال حركة أعضاء النطق، وأخص منها حركة الشفتين وهيئتهما أثناء نطق الصوت، ولكن بقي التشابه قائماً بين الحركات الثلاث، لكن التمييز بينها – إضافة لما سبق– يقوم على مكان النقطة من الحرف.

والمتبصر في كلام أبي الأسود يجده ينم عن فكر نيّر، من خلال وضع النقطة الدالة على الفتحة فوق الحرف؛ لأن الشفتين تتجهان إلى أعلى، والضمة بين يدي الحرف لأن الصوت يخرج من ضم الشفتين أو استدارتهما معاً، فكأنه بين يدي الشيء، والكسرة تحت الحرف لأن الشفة السفلى تنكسر إلى أسفل عند نطق الكسرة في الأصوات الشفوية. ووصف أبي الأسود كان يعتمد على الملاحظة ومع ذلك وصل إلى ما وصل إليه من تأسيس لجزء مهم في أصوات اللغة.

بعد جهد أبي الأسود السالف الذكر نجد الخليل بن أحمد يقوم بجهد متميز يدل على فكر صوتي، حيث وضع رسماً جديداً للحركات يختلف عن الرسم النقطي الذي وضعه أبو الأسود، فقد أخذه من صورة الحرف وصغّره. وقد ورد هذا عند أبي عمرو الداني في إشارته إلى عمل الخليل يقول: «الضمة واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف؛ لئلا تلتبس بالواو المكتوبة، والكسرة ياء تحت الحرف، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف»[٣].

وتقصير الحرف أو تصغيره عند الخليل يدل على العلاقة التي كان يعيها علماؤنا القدامى القائمة بين الحركات القصيرة والحركات الطويلة. ولكنهم في هذه المرحلة لم يطلقوا اسم حركات عليها. فقد وردت عند الخليل بأسمائها. فجاء في الكتاب «وزعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد، وهنّ يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به. والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه.فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو. فكل واحدة شيء مما ذكرت لك»[٤].

ويبدو أن الخليل قصد بقوله زوائد أنها ليست من أصل الكلمة أي جذر الكلمة. وهو لم يقلل من أهمية الحركات؛ لأنه يبين أهميتها في العملية النطقية إذ لا يمكن أن تنطق الحروف المتصلة دون حركة.

ووردت كلمة الحركات عند سيبويه في أثناء معالجته للأبواب الصرفية والنحوية، ومن أمثلة ذلك قوله في باب الإدغام: «وكلما توالت الحركات أكثر كان الإدغام أحسن. وإن شئت بينت»[٥].

ونجد عند الفراء أنه يسميها الضم والكسر والفتح، ولم يرد مصطلح الحركات بوصفه تسمية لهذه الأصوات يقول: «فإنما يستثقل الضم والكسر لأن لمخرجيهما مؤونة على اللسان والشفتين... والفتحة تخرج من طرف الفم بلا كلفة»[٦].

وبقيت الحركات هكذا دون اهتمام كبير حتى جاء ابن جني وتعامل معها معاملة خاصة، وتحدث عنها في كتابه الخصائص في باب «في مضارعة الحروف للحركات والحركات للحروف»، إذ يقول: «وسبب ذلك أن الحركة حرف صغير، ألا ترى أن من متقدمي القوم من كان يسمي الضمة الواو الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة والفتحة الألف الصغيرة»[٧]. ويذكر في سر الصناعة: «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين»[٨].

والفرق بين ابن جني وغيره من العلماء السابقين أن الأول استخدم مصطلح الحركات في الأبواب الصوتية، ومع ذلك لم ينسبه لنفسه، فمصطلح الحركات ورد قبل ابن جني في معالجات نحوية وصرفية.

وعند معالجة ابن سينا الأصوات اللغوية من جانب صوتي، فقد سمى هذه الأصوات بالمصوتات حيث قال: «وأما الألف المصوتة وأختها الفتحة... وأما الواو المصوتة وأختها الضمة.... وأما الياء المصوتة وأختها الكسرة»[٩].

ومما يلاحظ أن الحركات لم تكن محوراً رئيساً في الدراسات اللغوية القديمة وإنما كان الاهتمام منصباً على الحروف(الصوامت). ولم يظهر مصطلح الحركات ضمن دراسة مفردة ومفصلة في المراحل الأولى. بل جاء عرضة ضمن الحديث عن الجوانب النحوية. ولم يطلق القدماء على الحركات الطويلة اسم حركات وإنما عولجت ضمن الأصوات الصامتة. ونجد المعالجة من قبل القدماء لهذه الأصوات(الحركات الطويلة) أكثر من الاهتمام بالحركات القصيرة وذلك لأنها تدخل في بناء الكلمة أو الهيكل الرئيس في نظرهم.

وعلى الرغم من الاهتمام بهذه الأصوات، فإنهم اختلفوا في توصيفها. فالخليل وصفها بالهوائية يقول: «وأربعة حروف جوف وهي: الواو والياء والألف اللينة والهمزة» وسميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرج من مدارج اللسان ولا من مدارج الحلق ولا من مدرج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف.

ويتضح من كلام الخليل أنه قصد باللسان الفم، وهذا التوصيف للأصوات الثلاثة الأولى لا تشوبه شائبة سوى اعتباره الألف لينة، والألف هي حركة طويلة، ولكن ما يؤخذ على الكلام توصيفه الهمزة وجمعها مع هذه الأصوات، فالهمزة لها مخرجها وخصائصها المميزة ولا تماثل الأصوات المجتمعة معها في مخرج واحد.

أما سيبويه فقد أشار إلى أنها حروف اتسع مخرجها يقول: «... وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو لأنك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك، وهي الألف»[١٠].

ويظهر من كلام سيبويه أن هذه الأصوات اتسع مخرجها بمعنى أنه في أثناء إنتاجها لم يعترض تيار الهواء المنتج لها أيُّ تضييق أو إغلاق. وبين أن الألف أكثر هذه الأصوات حرية في طريقة إنتاجها.

أ. عدد الحركات عند القدماء

يرى علماء اللغة القدامى أن الحركات في العربية ثلاث، ولم يطلقوا اسم الحركات على حروف المد التي تندرج تحت مصطلح الحركات على أنها حركات طويلة. غير أن القدماء لم يعدوها حركات، مع الربط بين الحركات القصيرة والطويلة من خلال ما نصوا عليه. فابن جنى يقول: «فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو»[١١].

فإشارة ابن جني هذه تدل من حيث الكمية أن هناك حركات قصيرة وأخرى طويلة، فالبعضية جزء من كل. فإطلاقه اسم الحركات على الفتحة والكسرة والضمة، وهي بعض الحروف السابقة؛ فالحركة لا تكون بعض حرف صامت بل تكون بعضاً من حركة مماثلة لها.

وقد سبق الخليل بن أحمد إلى الإشارة السابقة عندما أخذ رسم الحركات من صور الحرف، وهذا يدل على معرفة القدماء لهذه الحركات الطويلة، وأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الحركات القصيرة، وأصوات المد الطويلة في الصفات الصوتية. غير أن العلماء القدامى لم يهتموا بتوصيف الحركات القصيرة من ناحية صوتية كتحديد المخرج وكيفية إنتاجها والصفات المميزة لها، وإنما اكتفوا بتوصيف الصوامت لأنها لبنة من لبنات الكلمة.

ب. الحركات الطويلة(حروف المد) عند القدماء

اهتم علماء اللغة القدامى بإظهار الصفات الصوتية لحروف المد من حيث المخرج، والصفات المميزة لها، ولكنهم خلطوا بين حروف المد(الحركات الطويلة) وحرفي اللين(وي). بوصفهما حرفين يدخلان في جذر الكلمة.

وقد تباينت رؤى العلماء القدامى في إعطاء الصفات المميزة لحروف المد الألف والواو والياء بوصفها حركات طويلة.

لقد بقيت هذه الحركات ترد لدى القدماء بأسماء لا تتضمن مصطلح الحركة. فهي عند الخليل هوائية، ونجد سيبويه يضعها تحت صفتين:

الأولى: اللينة وتجمع الواو والياء يقول: ومنها اللينة وهي الواو والياء؛ لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما"[١٢].

والأخرى الهاوية وهي صفة الألف يقول: «ومنها الهاوي حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو لأنك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل، الحنك وهي الألف»[١٣]. وتحدث عن ترتيب هذه الأصوات حسب اتساع مخرجها، فقال: «وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مخرجها، وأخفاهن وأوسعهن مخرجاً الألف ثم الياء ثم الواو»[١٤].

وتحدث ابن جني عن المواضع النطقية للحركات من خلال الأعضاء العاملة في إنتاجها يقول: «والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثم الياء ثم الواو، وأوسعها وألينها الألف، إلا أن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو. والعلة في ذلك أنك تجد الفم والحلق في ثلاث الأحوال مختلف الأشكال، أما الألف فنجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر، وأما الياء فنجد معها الأضراس سفلاً وعلوا قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته وتفاجّ الحنك عن ظهر اللسان.. وأما ا لواو فتضم لها معظم الشفتين وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس، ويتصل الصوت، فلما اختلفت أشكال الحلق والفم والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة اختلف الصدى المنبعث من الصدر»[١٥].

وقد ورد مثل هذا القول عند الإستراباذي حيث قال:» لأنك تضم شفتيك للواو فيتضيَّق المخرج، وترفع لسانك قبل الحنك للياء، وأما الألف فلا تعمل له شيئاً من هذا، بل تفرج المخرج؛ فأوسعهن مخرجاً الألف»(١٦).

وقد فرق ابن عصفور بين الواو والياء من جهة والألف من جهة أخرى، من حيث تيار الهواء المنتج لهذه الأصوات، «فالواو والياء اتسع مخرجها لهواء الصوت فجرى الصوت بعض الجري، وأما الألف فاتساع مخرجها أشد من اتساع مخرج الواو والياء، وذلك لأنك تضم الشفتين في الواو وترفع لسانك قبل الحنك في الياء، أما الألف فليس لها شيء من ذلك، فهذه الأحرف الثلاثة لها أصوات في غير موضعها من الفم فأشبهن الرخوة، ولكن ليس للصوت جري في مواضعها، وأشبهن الشديدة للزومها مواضعها»(١٧).

وقد تعرض ابن يعيش إلى هذه الأصوات حيث قال: «والهاوي الألف يقال له الجرس، لأنه صوت لا معتمد له في الحلق، والجرس الصوت وهو حرف اتسع مخرجه لهواء الصوت أشد من اتساع مخرج الواو، والياء لأنك تضم شفتيك في الواو، وترفع لسانك إلى الحنك في الياء وأما الألف فتجد الفم والحلق منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط ولا حصر، وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مخرجهما، وأخفاهن وأوسعهن مخرجاً الألف»(١٨).

ثم يأتي دور ابن سينا حيث أشار إلى المواضع النطقية للحركات بقوله: «وأما الألف المصوتة وأختها الفتحة فأظن أن مخرجهما مع إطلاق الهواء سلساً غير مزاحم، وأما الواو المصوتة وأختها الضمة فأظن أن مخرجهما مع إطلاق الهواء مع أدنى تضييق وميل به سلساً إلى فوق، أما الياء المصوتة وأختها الكسرة فأظن أن مخرجهما مع إطلاق الهواء مع أدنى تضييق للمخرج وميل به سلسل إلى أسفل»(١٩).

نلحظ أن جُلّ العلماء القدامى تعرض لهذه الأصوات من خلال التيار المنتج لهذه الأصوات، وهم على علم أن هذه الأصوات لا تنتمي لمخرج معين، وهذا ما أثبتته الدراسات الصوتية الحديثة.

وتجلي الآراء السابقة مواضع تطور الحركات القصيرة في المواضع النطقية لحروف المد مع أنهم لم يطلقوا على حروف المد مصطلح حركات، غير أن جل العلماء القدامى يرى أن الفتحة لا تعمل بها أعضاء النطق في الفم، وإنما يرون أنها تنتج من الحلق، ولكنهم تنبهوا إلى عمل اللسان والشفتين والحنك الأسفل كما وجدناه عند الفراء.

ورأي ابن جني السابق يدل على اهتمامه الملحوظ بالحركات وتحديد مواضعها النطقية من خلال عرضه المفصل للأعضاء النطقية العاملة في إنتاجها. ويختلف عمن سبقوه بدقه رأيه وشموليته، ولكنه لم يذكر دور اللسان عند إنتاج الضمة مع أنه ذكر هذا

الدور في إنتاج الكسرة، ونجده يحدد الحلق موضعاً لإنتاج الفتحة، والفم لإنتاج الكسرة والشفتين لإنتاج الضمة وهذا التحديد وإن كان يدل على دقة تأملية في إنتاج الأصوات إلا أن عمومية المخرج، وعدم تحديده تحديداً دقيقاً، يقلل من دقة إعطاء الصفات المخرجية لهذه الأصوات؛ لأن هذه الأعضاء مجتمعه تقوم بإنتاج هذه الأصوات.

أما ابن سينا فيلاحظ من كلامه أن الألف تخرج من الحلق دون أن يعيقها أي عائق فلا دور للسان ولا للشفتين في إنتاجها، ولكنه جعل وضع اللسان وتعامله مع مجرى الهواء المنتج للواو والياء، هو العامل في إنتاج هذين الصوتين، مع الواو يضيق المجرى بوساطة عضلات اللسان وما ينتج عنه من تضييق لمجرى الهواء والاتجاه به إلى أعلى، أما الكسرة فيضيق مجرى الهواء لإنتاجها مع خفض الحنك السفلي، وخفض مقدمة اللسان ليندرج الهواء المنتج للكسرة إلى أسفل؛ إن هذا الاختلاف في آراء القدامى حول المواضع النطقية للحركات جاء كما يبدو من الرؤية الأولى، ثم بنوا آراءهم على ما توصل إليه سيبويه أولاً، ثم ابن جنى ثانياً، مع عدم إغفال دور الخليل بن أحمد في هذا المضمار، وانطلقت الدراسات الصوتية من تلك القاعدة، إضافة لما سبق كان له الأثر الأكبر في توجيه الدراسات الصوتية عندهم لاعتمادهم في توصيف هذه الأصوات على الملاحظة والذوق، فجاء تحديد المخرج غير دقيق في مواطن كثيرة. ولكن هذا لا يقلل من الجهد الكبير الذي قام به هؤلاء العلماء، فهو منطلق الدراسات الصوتية الحديثة.

ج. أصوات اللين عند القدماء

خلط القدماء بين أصوات المد(الحركات الطويلة) وبين حرفي اللين(الواو والياء) بوصفهما نصفي حركة أو أشباه صوامت، أو أشباه حركات، كما أطلق عليها المحدثون.

وقد فرق جعفر عبانبة بين المد واللين عند القدماء بقوله: «فمن المفاهيم الشائعة لدى القدماء أن حرف المد هو حرف العلة الساكن المسبوق بحركة من جنسه مثل الألف في قام وسار، والواو في نور وسوق وعجوز، والياء في دين وسعيد وعرين. وحرفا اللين هما الواو أو الياء الساكنتان المسبوقتان بفتحة، مثل الواو في حوْض وذوْق، والياء في بيْت وزيْت. وحرف العلة عندهم هو الواو والياء المتحركتان كالواو في وْرق والياء في يُسر وهما مضارعتان للحروف الصحيحة لاحتمالهما الحركة»[٢٠].

وقد ورد مثل هذا القول عند مكي بن أبي طالب فقد قال: «الواو الساكنة هي التي قبلها فتحة والياء الساكنة التي قبلها فتحه، وإنما سميتا بذلك لأنهما يخرجان في لين وقلة كلفة على اللسان، لكنهما نقصتا عن مشابهة الألف لتغير حركة ما قبلها عن جنسهما، فنقصتا المد الذي في الألف، وبقي فيهما اللين لسكونهما فسميتا بحرفي اللين»[٢١].

وقد جمع القدماء بين حروف المد واللين في مجموعة صوتية واحدة، على الرغم من التفريق في الصفات من الناحية النظرية، يقول سيبويه:» ولا تدغم الياء وإن كان قبلها فتحة ولا الواو وإن كان قبلها فتحة مع شيء من المتقاربة لأن فيهما ليناً ومداً[٢٢].

وبهذا الخلط فسروا بعض السلوكات الصرفية في اللغة العربية. فقد وصفوا الألف بأنها ساكنة، وعلة عدم الإدغام بين ألفين في نظرهم بسبب سكونها. يقول سيبويه في ذلك: «وكذلك الألف لا تدغم في الهاء ولا فيما تقاربه؛ لأن الألف لا تدغم في الألف؛ لأنها لو فعلت ذلك بها فأجريتهما مجرى الدالين والتاءين تغيرتا فكانتا غير ألفين فلما لم يكن ذلك في الألفين، لم يكن فيهما مع المتقاربة»[٢٣].

ويذهب المبرد إلى وصف الألف بالساكنة حيث يشير إلى ذلك بقوله: «إن الألفين لا يصلح فيهما إدغام، لأن الألف لا تكون إلا ساكنة»[٢٤]. وورد مثل هذا عند ابن يعيش حيث قال: «وأما الألف فإنها لا تدغم في مثلها لأنها ساكنة، وبالإدغام يلتقي ساكنان وهذا ما لا تجيزه العربية»(٢٥). ويرى ابن عصفور أن كل مثلين قد يدغمان إلا الألفين والهمزتين وبين سبب ما ذهب إليه لأن الألف ساكنة فلا تدغم في ساكن[٢٦].

إن هذا التوصيف للألف بأنها ساكنة أو لينة فيه نظر وخلط كبير ويمكن أن يكون هذا الوصف للألف عند القدماء ناتجاً عن عدم معرفتهم للخصائص الصوتية لها من جهة، وعدم ظهور الحركة عليها كما توهموا من جهة أخرى. وهذا التوصيف لا يتفق مع ما توصلت إليه الدراسات الحديثة التي ترى أن الألف حركة طويلة، وهي بالأحرى فتحة طويلة(aa). والنسيج المقطعي للغة العربية لا يسمح باجتماع حركتين طويلتين، لأن إحداهما ستكون في بداية مقطع. والمقطع العربي لا يبدأ بحركة aa/aa– وامتناع الإدغام هنا ليس لكونها ساكنة كما ذهب القدماء.

غير أننا نجد عند سيبويه إشارات تدل على الفرق بين الواو والياء بوصفهما حرفي مد، والواو والياء بوصفهما حرفي لين فيذكر في باب الإدغام: " ونقول: هذا دلوُ واقد وظبيُ ياسر فنجري الواوين والياءين ههنا مجرى الميمين في قولك اسم موسى فلا تدغم"(٢٧).

ويقول أيضاً:» وإذا قلت مررت بوليّ يزيد وعدوّ وليد فإن شئت أخفيت وإن شئت بينت، ولا تسكن لأنك حيث أدغمت الواو في عدوّ والياء في وليّ فرفعت لسانك رفعة واحدة ذهب المدّ، وصارتا بمنزلة ما يدغم من غير المعتل، فالواو الأولى في عدوّ بمنزلة اللام في دلو والياء الأولى في وليّ بمنزلة الياء في ظبي»[٢٨].

ويفهم من كلام سيبويه السابق أن حروف اللين تدغم، وتعامل معاملة الحروف الصحاح فهي شبيهة بها، فهي بمنزلة اللام والباء كما ذكر. وهذا التوصيف وإن كان غير دقيق؛ لأنه ذكر أن بالإدغام يذهب المد. فهو توصيف قريب مما وصل إليه العلماء في

العصر الحديث فالواو والياء اللينتان تشبهان الحروف الصحيحة وتشبهان حروف المد. فلذلك أطلق عليها أنصاف الحركات.

وفرق ابن يعيش بين الياء المدّية والياء اللينة بقوله: «اعلم أن الياء وإن كانت من مخرج الجيم والشين فإنها من حروف المد ولها فضيلة على غيرها بما فيها من المد واللين... والياء تدغم في مثلها إن كانت متصلة بأن كانتا في كلمة واحدة فمثالها في الكلمة الواحدة قولك حيّ وعيّ في حيي وعيي... وأما المنفصل وهو الذي يكون المثلان فيه من كلمتين فإن كانت الياء الأولى قبلها فتحة جاز الإدغام نحو: أخشَىّ ياسراً، فإن انكسر ما قبلها لم تدغم كقولك: «أظلمي ياسراً «والفرق بينهما أن الكسرة إذا كانت قبلها كمل المد فيها فتصير بمنزلة الألف لأن الألف لا يكون قبلها إلا مثلها»[٢٩].

إن ما ذهب إليه ابن يعيش من تفريق بين حرفي اللين وأحرف المد فيه شيء من الدقة مع التوهم بوجود كسرة ما قبل الياء وفتحة ما قبل الألف هذا الوهم الذي ذهب إليه القدماء ومنهم ابن يعيش وجّه التفسيرات الصرفية إلى منحنى الخطأ. **لأن سبب عدم الإدغام في ياء المد مع الياء اللينة ليس كما ذهب ابن يعيش وإنما لأن الأولى حركة طويلة(كسرة طويلة)، والثانية نصف حركة فكيف يصبحان مثلين؟**

وقد صرح ابن السراج بقوله: «إذا قلت وأنت تأمر: أخشَىّ ياسراً واخشوّا واقداً أدغمت لأنهما ليسا بحرفي مد كالألف، لأنه انفتح ما قبل الياء والواو»[٣٠]. ويتضح من كلامه أن الألف حرف مد أي أنها حركة طويلة وأن الواو والياء إذا جاء قبلهما حركة ليس من جنسهما كما توهم القدماء فهما ليسا حرفي مد. أي أن حرفي اللين عند القدماء الواو والياء إذا لم يسبقا بحركة من جنسهما وهذا فيه خلط. والدليل أن(واقد وياسر) لم يسبقا بحركة ومع ذلك فهما حرفا لين أو هما نصفا حركة، فاهتموا بتوصيف الحرف الأول في أخشيّ ياسراً ولم يهتموا بتوصيف المثل الثاني.

إن ما ذهب إليه القدماء في الخلط بين حروف المد(الحركات الطويلة)، وحرفي اللين (الواو والياء) أنصاف الحركات جعلهم يخطئون في تفسير بعض السلوكات الصرفية. ويخطئون في إعطاء الصوت صفاته المميزة التي تجعله يختلف عن الصوت الشبيه به في الرسم الكتابي، وليس هذا الرسم المتشابه هو السبب في هذا الخلط، لأن هذا الرسم من صنع علمائنا الذين قعدوا هذه اللغة. وفي رأي الباحث أن الرسم الكتابي المتشابه هو الذي جعل العلماء يبحثون في السمات المميزة لكل صوت من هذه الأصوات. والدليل على ذلك هو أن القدماء جهدوا أنفسهم في التفريق بين هذه الأصوات من حيث حركتها وحركة ما قبلها، وبنوا تعليلاتهم الصرفية على ما توصلوا إليه من نتائج فكرهم الذي اعتمد على الملاحظة والذوق.

ثانياً: الحركات عند المحدثين

تطورت الدراسات الصوتية في العصر الحديث، وأصبحت تعتمد على التجارب المخبرية، فغدت الصفات المميزة للصوت أكثر دقة من توصيف علماء اللغة القدامى له. وقد كانت نتائج القدماء في وصف المخارج للأصوات وتيار الهواء المنتج لها يختلف عما جاء عند المحدثين.

واللغة العربية شأنها شأن اللغات الأخرى تتشكل من مجموعة من الأصوات اللغوية. والقدماء قسموا هذه المجموعة الصوتية إلى قسمين: حروف علّة وحروف صحاح، غير أن المحدثين قسموا هذه المجموعة إلى ثلاثة أقسام حسب تيار الهواء المنتج لها. وهي: الصوامت، والحركات، وأشباه الصوامت أو أشباه الحركات. وما يهمنا هنا هو طريقة إنتاج الحركات وتوصيفها.

يرى إبراهيم أنيس أن «الصفة التي تجمع بين كل أصوات اللين Vowels هي أنه عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم في ممر ليس فيه حوائل تعترضه فتضيق مجراه كما يحدث مع الأصوات الرخوة أو يحبس النفس ولا تسمح له بالمرور كما يحدث مع الأصوات الشديدة، فالصفة التي تختص بها أصوات اللين هي كيفية مرور الهواء في الحلق والفم وخلو مجراه من حوائل وموانع»[٣١]. وإطلاق مصطلح اللين على الحركات يبدو إبراهيم أنيس فيه متأثراً بالقدامى من علماء اللغة، فهي تسمية غير دقيقة.

ويذكر عبد الصبور شاهين أن الحركات تنتج «إذا لم يحدث اعتراض في الفم فإن الصوت ينطلق إلى خارجه مكوناً ما يعرف بالحركات. والحركات أصوات انطلاقية تحدث من ذبذبة الأوتار الصوتية عند مرور الهواء بها، وليس للفم من دور في إنتاجها سوى اتخاذه شكلاً معيناً باعتباره غرفة رنين يعطي الصوت المار بها طابعاً خاصاً»[٣٢].

ويحددها محمود السعران بقوله: «يحدد الصائت في الكلام الطبيعي بأنه الصوت المجهور الذي يحدث في تكوينه أن يندفع الهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والفم وخلال الأنف معهما أحياناً دون أن يكون ثمة عائق يعترض مجرى الهواء اعتراضاً تاماً، أو تضييق لمجرى الهواء من شأنه أن يحدث احتكاكاً مسموعاً»[٣٣].

ويعرفها رمضان عبد التواب بقوله: «الأصوات المتحركة، أو أصوات العلة ويسميها الإنجليز» vowels «تعرف بأنها الأصوات المجهورة الذي يحدث في تكوينها أن يندفع الهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والفم، وخلال الأنف معهما أحياناً دون أن يكون هناك عائق يعترض مجرى الهواء»[٣٤].

وتناولها عبد القادر عبد الجليل بصفتها فونيماً تركيبياً، يقول: «الفئة الثانية من الفونيمات التركيبية، وقد أطلق عليها في العربية تسميات عدة الأصوات اللينة– الطليقة– حروف المد– المصوتات– حروف العلة الصائتة– الحركات الطليقات، الأصوات المتحركة»[٣٥]. ويذكر في موضع آخر: «تتميز هذه الأصوات بصفة الجهر الملازم لها، لأن الحركة لا يمكن أن تكتسب جانبها التمييزي وتؤدي وظيفتها داخل البنى اللغوية إلا إذا كانت مجهورة وإلا فإنها لا تعدو أن تكون زفيراً... تؤدي كل من الحركات القصيرة والطويلة وظائف مستقلة داخل البنى اللغوية ومعنى هذا أن كل واحدة منها تمثل فونيماً مستقلاً، كما أنها تمتلك خاصية التبادل الموقعي داخل الوحدات اللغوية»[٣٦].

إذن الحركات أصوات انطلاقية لا يحدث أي عائق للتيار المنتج لها أثناء خروجه من الرئتين غير أن اللسان يأخذ وضعاً معيناً والشفتان كذلك. وهي مجهورة باتفاق العلماء غير أن الباحث يجد عند عبد الصبور شاهين قولاً فيه نظر حيث يقول: «والجهر والهمس صفتان تشترك فيهما الصوامت والحركات على سواء، على الرغم من دقة ملاحظة الهمس في الحركات»[٣٧].

إن ما ذهب إليه عبد الصبور شاهين من همس الحركات رأي غير دقيق؛ لأنه لولا اهتزاز الوترين الصوتيين لأصبحت الحركات زفيراً، فالجهر سمة مميزة للحركات علاوة على عدم تعرض تيار الهواء المنتج لها إلى أي اعتراض.

أ– عدد الحركات عند المحدثين

قسم علماء اللغة المحدثون الحركات حسب كميتها وأثرها في المعنى إلى قسمين: قصيرة، وطويلة.

أولاً: الحركات القصيرة.

يتفق جل علماء اللغة في العصر الحديث على أن عدد الحركات القصيرة ثلاث هي:

الفتحة القصيرة: a

والكسرة القصيرة: I

والضمة القصيرة: u

ومع كثرة الأدلة والآراء على عدد الحركات القصيرة، وتحديدها بثلاث حركات إلا أن بعض علماء اللغة المحدثين اختلفوا في الحركة الرابعة " وقد عرفت العربية الفصحى أربع حركات هي:

١. الفتحة المفخمة بعد الأصوات المفخمة: الصاد والضاد والطاء والظاء والقاف والغين والخاء والراء ولام لفظ الجلالة إن سبقت بفتح أو ضم.
٢. الفتحة المرققة مع بقية الصوامت.

٣. الكسرة الضيقة الأمامية، وقد تتسع قليلاً فتنطق كالفتحة الممالة في المقطع المقفل مثل: طِر وبِع أمرين من طار وباع.
٤. الضمة الضيقة الخلفية... بيد أن التسميات التي وضعت لهذه الحركات كانت ثلاثة بإدماج حركتي الفتحة(مفخمة ومرققة) في تسمية واحدة من حيث كان اختلافهما لا أثر له من الناحية الصرفية"[٣٨].

ولمناقشة هذا الرأي لا بد من توضيح بعض المصطلحات بقصد فهم الموقف وهي:

الفونيم: تناول عدد من العلماء تحديد الفونيم وتعريفه ويمكن إجمال هذه التعريفات حسب علمائها، فعند «دي سوسير: «مجموعة التأثيرات السمعية، والحركات النطقية للوحدات المسموعة والوحدات المنطوقة كل منها بشرط الآخر»[٣٩].

أما تروبتسكوي فيعرف الفونيم بأنه «أصغر وحدة فنولوجية في اللسان المدروس»[٤٠].

ويعرفه دانيال جونز بأنه «عائلة أو أسرة من الأصوات في لغة معينة متشابهة الخصائص ومستعملة بطريقة لا تسمح لأحد أعضائها أن يقع في كلمة من الكلمات في نفس السياق الصوتي الذي يقع فيه أي عضو آخر من العائلة نفسها»[٤١].

ويمكن تعريف الفونيم بأنه أصغر وحدة صوتية صامتية أو صائتية قادرة على تغيير الدلالة في بنية الكلمة.

الألوفون: هو التنوع الصوتي السياقي الذي يطرأ على نطق الفونيم»[٤٢].

المورفيم: «أصغر وحدة ذات معنى»[٤٣].

بعد هذه التعريفات نطرح الملاحظات الآتية حول رأي عبد الصبور شاهين:

لم يأت بدليل يبرهن على ما ذهب إليه من اللغة أو تجارب مخبرية، بل اعتمد على النطق الناتج عن تأثير الصوت المطبق في الألف وهو تأثر سياقي ألوفوني لا يغير معنى، لذلك لا يعتبر فونيماً مستقلاً.

الألف فونيم أما الترقيق والتفخيم فلا يعطيها صفة فونيمية أخرى بدليل أن الألف تبقى ذات دلالة واحدة في التفخيم أو الترقيق.

لم يطبق عبد الصبور شاهين ما قاله على الكسرة والضمة فهي تتبادل مواقع الألف في السياقات المختلفة. فلماذا لم يقل كسرة مفخمة، وضمة مفخمة ويعتبر كلاً منهما فونيماً مستقلاً.

ويذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول: "ويصعب من الناحية النطقية أن تحل الفتحة المرققة محل الفتحة المفخمة والعكس، ففي الفعلين طاب وتاب تعتبر الفتحة بطابعها شرطاً في دلالة الكلمة على معناها، أي أن الاختلاف بين الكلمتين في حرفين لا في حرف واحد"[٤٤].

لقد نقلنا إلى الفتحة الطويلة وهو يتحدث عن الحركات القصيرة، ومع ذلك يذهب إلى

جعل الفتحة الطويلة في كلا الفعلين فونيمين مستقلين، وهذا ليس صحيحاً؛ لأن الفرق في المعنى بين الفعلين السابقين ناتج عن اختلاف الفونيمين الأولين(ط، ت)، والتفخيم المكتسب في الفتحة الطويلة في(طاب) ناجم عن تأثير صوت الطاء في الفتحة الطويلة فأكسبها صفة الأطباق، فهو تأثير جزئي، فالألف المفخمة هنا ألوفون لأنها اكتسبت التفخيم من خلال ما جاورها من أصوات في السياق النطقي.

لهذا يذهب الباحث إلى أن الحركات القصيرة ثلاث، وما ينتج من تفخيم أو ترقيق لها إنما هو من قبيل الألفونات السياقية. وقد أشار المطلبي إلى ذلك بقوله: " إن ألف التفخيم ليست إلا صورة من صور نطق الألف وهي بهذا لا تحمل أية قيمة فونيمية خاصة بها، خارجة عن فونيم الألف العربية المعروفة"(٤٥).

وهناك من الباحثين من عدّ السكون حركة صوتية تماثل الحركات الأخرى ومنهم محيي الدين رمضان يقول: «وواضح في ذلك أن الساكن إذا أدرج ليس له حال الموقوف عليه أنك قد تجمع في الوقف بين الساكنين نحو بكْر وعمْرو، فلو كانت حال سكون كاف بكر كحال سكون رائه لما جاز أن تجمع بينهما... وهذا يعني أن السكون ليس تركاً لنطق الصوت وإنما هو درجة من النطق تشبه حال النطق بالصوت المحرك بالفتح... وهو حركة مثل الفتح وقريب منه»(٤٦).

إن ما ذهب إليه محيي الدين رمضان يتنافى مع الطبيعة الصوتية للسكون الذي يعني سلب الحركة، ويبدو أنه غاب عن ذهنه جلب الحركة عند التقاء الساكنين في التراث اللغوي، علاوة على أن صوت الراء ليس ساكناً تماماً لأن تكرارية الراء تجعل الهواء المنتج لها يتسلل دون توقف من خلال ضربات اللسان في الحنك الأعلى.

إن ما نادى به رمضان لا يختلف كثيراً عما ذهب إليه ابن جنى في اختلاف سكون كاف بكر عن رائه، فقد نص على ذلك ابن جنى بقوله: «ومما يدل على أن الساكن إذا أدرج ليست له حال الموقوف عليه، أنك قد تجمع في الوقف بين الساكنين، نحو: بكْر، وعمْرو فلو كانت حال سكون كاف بكر كحال سكون رائه لما جاز أن تجمع بينهما، من حيث كان الوقف للسكون على الكاف كحاله لو لم يكن بعده شيء، فكان يلزمك حينئذٍ أن تبتدئ بالراء ساكنة والابتداء بالساكن ليس من هذه اللغة العربية»(٤٧).

لقد فرق القدماء وكان رأيهم صائباً في اختلاف موضع السكون، فسكون الدرج يختلف عن سكون الوقف، وقد تنبه إلى ذلك ابن جنى بقوله: «إن العين إذا كانت ساكنة فليس سكونها كسكون اللام... وذلك أن الحرف الساكن ليست حاله إذا أدرجته إلى ما بعده كحاله لو وقفت عليه، وذلك لأن من الحروف حروفاً إذا وقفت عليها لحقها صويت ما من بعدها، وإذا أدرجتها إلى ما بعدها ضعف ذلك الصويت وتضائل»(٤٨).

ومن قبله ذكر سيبويه في وصفه لحروف القلقلة ذلك الصويت بقوله: «واعلم أن من

الحروف حروفاً مشربة ضغطت من مواضعها فإذا وقفت خرج معها من الفم صويت ونبا اللسان عن موضعه»[٤٩].

إن ما دعا إليه محيي الدين رمضان من التحقيق النطقي للسكون، وأنه عكس الحركة، ومنع الحركة كما يبدو في رأيه حركة، وربما اعتمد في وصفه على التوتر الذي يصيب أعضاء النطق المنتجة للصوت عند النطق بالساكن فتتحول أعضاء النطق من حالة إلى حالة ربما كان في نظره حركة. لا يختلف اثنان في حقيقة وجود السكون في اللغة العربية، ولكن ما الصفة الحقيقية للسكون؟

لقد ناقش كمال بشر السكون في اللغة العربية ومما ذهب إليه «أن إطلاق اسم حركة على السكون على المستوى النطقي المحض إطلاق غير دقيق ولا يستند إلى أي أساس من الواقع؛ لأن الحركة من هذه الناحية – النطق الفعلي والتأثير السمعي– لها صفات معينة لا يوجد شيء منها البتة في السكون»[٥٠].

غير أنه لا ينفي أن هناك قيماً معينة للسكون في النظام اللغوي العربي ويذكر على سبيل المثال لا الحصر القيمة الوظيفية، وتتجلى هذه القيمة في الأمور الآتية:

١. السكون إمكانية من إمكانات أربع تعرض للحروف أو الأصوات الصامتة وهذه الأصوات قد تتبع بفتحة أو ضمة أو كسرة، وبلا شيء منها، وهذه الإمكانية الرابعة لها قيمة صوتية على المستوى الوظيفي إذ هي تميز الحرف الخالي من الإمكانيات الثلاث الأخرى، وهذا التميز ذو أهمية خاصة لأنه يشير إلى حالة صوتية رابعة وموجودة بالفعل.
٢. السكون له وظيفة في التركيب المقطعي في اللغة العربية، إذ هو يعطي الهوية الخاصة، بالمقطع، فهو يميز نهاية المقطع المنتهي بحرف خالٍ من الحركات الثلاث كما في المقطع(ص ح ص)، فهو صوت صامت+ حركة+ صوت صامت. وهو مقطع متوسط مغلق، يقابل المقطع(ص ح ح) = صامت+ حركة طويلة، أو المقطع(ص ح)= صامت + حركة قصيرة. وهو المقطع القصير.
٣. للسكون وظيفة موسيقية في نهاية الكلمة أو الجملة في بعض المقامات اللغوية وقد أطلقوا على القواعد المتعلقة بهذا الأمر باب الوقف.
٤. وتظهر هذه القيمة الموسيقية للسكون في التفعيلات العروضية فهي مبنية على أنساق صوتية معينة، للسكون دور كبير في تشكيل أنماطها وأنماط وحداتها المكونة لها.
٥. هناك تبادل في الموقع بين الخلو من الحركة والفتح في بعض السياقات الصرفية في صيغ صرفية خاصة، كتلك التي نص عليها علماء العربية مما كان عينها صوتاً من الأصوات التي نعتوها بالأصوات الحلقية وهي(الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء) كما في نهْر ونهَر وبحْر وبحَر.... الخ([٥١]).

ويرى أيضاً أن "تسمية السكون حركة مقصورة على الجانب الوظيفي، وهو جانب لا

يعتمد على النطق المادي، أو هو يعتمد عليه ولكنه بالمعنى السلب إذ السكون سلبي أو عدم... ولهذا نقترح أن تسمى السكون " الحركة الصفر" "ZERO VOWEL"[٥٢].

إن ما ذهب إليه كمال بشر فيه شيء من الدقة ولكن يبدو أن مصطلح الحركة الصفرية لا يتماشى مع منطق اللغة؛ لأن كلمة حركة في اللغة لها صفاتها المميزة من حيث طريقة إنتاجها ومواضع نطقها ولكن السكون لا نجد له مكاناً في الحركات. وإطلاق القيمة الصفرية على السكون يعني أن له وجوداً فعلياً لأن الصفر في الرياضيات ذو قيمة عظيمة. وإذا أردنا أن نضع له قيمة رياضية، فالأفضل أن نطلق عليه في مجموعة الحركات عنصر فاي(Ø) أي مجموعة خالية بمعنى لها شكل مادي ولكن خالية من التأثيرات النطقية والسمعية. لأننا نستطيع أن ننطق الحركات منفردة ولكن لا نستطيع أن ننطق السكون دون الصامت.

إن من أطلق عليه حركة من علماء اللغة المحدثين اعتمد على وصف القدماء له بأن السكون أخف الحركات وإنه يضارع الفتحة، ويقول ابن جنى: «ألا ترى إلى مضارعة الفتحة للسكون في أشياء منها أن كل واحد منها يهرب إليه مما هو أثقل منه نحو قولك في جمع فُعْله وفِعْله فُعُلات وفِعِلات ثم يستثقل توالي الضمتين والكسرتين، فيهرب عنهما تارة إلى الفتح، وأخرى إلى السكون. أفلا تراهم كيف سوّوا بين الفتحة والسكون في العدول عن الضمة والكسرة إليهما»[٥٣].

إن السكون وجود فعلي مادي شكلي؛ أي كتابي موجود في اللغة ولكن من حيث التحقق النطقي غير موجود، ولا يوجد له أثر سمعي، فالحركات القصيرة في اللغة العربية لا تتعدى الثلاث: الفتحة القصيرة، والضمة القصيرة، والكسرة القصيرة.

ثانياً: الحركات الطويلة

تختلف هذه الحركات عن سابقتها، الحركات القصيرة، في كون الزمن الذي يستغرق إنتاجها أطول نسباً، واللغة العربية تشمل على مقابلات ثلاث للحركات القصيرة، وهي الفتحة الطويلة والضمة الطويلة والكسرة الطويلة.

وقد اختلف المحدثون في كمية الحركات الطويلة إلى الحركات القصيرة فيذهب إبراهيم أنيس إلى أن كمية الحركات الطويلة تساوي ضعف القصيرة حيث قال: «واللغويون عادة يقسمون أصوات اللين إلى نوعين فقط، قصير وطويل، فالفتحة مطلقة صوت لين قصير، فإذا أصبحت ما يسمى بالألف الممدودة فهي صوت لين طويل، والفرق عادة بين الفتحة الطويلة والقصيرة هو أن الزمن الذي تستغرقه الأولى ضعف ذلك الذي تستغرقه الثانية»[٥٤].

وذهب جواد النوري إلى مثل هذا فذكر أن الحركات الطويلة تختلف عن القصيرة في

زمن النطق يقول: «تختلف هذه الحركات عن سابقتها، الحركات القصيرة، في كون الزمن الذي يستغرقه، أطول نسبياً. واللغة العربية تشتمل على نظائر ثلاثة للحركات القصيرة السابقة، هي الكسرة الطويلة(ii) والفتحة الطويلة(aa) والضمة الطويلة(uu)[٥٥].

ويذكر أحمد الحمو أنه «.... قد استقر حالياً أن المصوت الطويل يعادل ضعف المصوت القصير، وأن الحركة من حيث زمنها نصف زمن حرف المد »[٥٦].

وهناك من علماء اللغة من ذهب إلى تفاوت الكمية بين القصيرة والطويلة حسب الأصوات المجاورة ومنهم إبراهيم أنيس الذي ذكر في السابق أنه يساوي ضعف الحركة القصيرة ولكنه يذكر في موضع آخر أن: «أصوات اللين الطويلة في اللغة العربية قد يزداد طولها ضعفاً أو ضعفين حين يليها همزة أو صوت مدغم... فالقراء في مثل «يشاء» وفي مثل «ولا الضّالين» قد يطيلون صوت اللين فوق طوله أضعافاً. وهذا النوع من الإطالة لا يراعى إلا في القراءات القرآنية»[٥٧]. ويذكر في موضع آخر «والصوت اللغوي قد يتأثر من حيث طوله بما يجاوره من الأصوات، ومما لا حظه المحدثون أن صوت اللين يزداد طولاً إذا وليه صوت مجهور»[٥٨].

وقد ورد عند القدماء ومنهم ابن جنى باب في مطل الحروف، تمادي كمية الحركات عندما تكون متبوعة بهمزة أو صوت مضعف يقول: «إلا أن الأماكن التي يطول فيها صوتها وتتمكن مدتها ثلاثة. وهي أن تقع بعدها الهمزة أو الحرف المشدد»[٥٩].

وهذا يعني أن القدماء تنبهوا لتمادي كمية الحركات الطويلة ومنهم أيضاً ابن سينا الذي كان عنده تصور يفوق تصور بعض المحدثين الذين يجزمون باستقرار كمية الحركة الطويلة إلى القصيرة حيث يقول:»ثم أمر هذه الثلاثة علي مشكل، ولكني أعلم يقيناً أن الألف الممدودة المصوتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة، وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف إلى حرف، وكذلك نسبة الواو المصوتة إلى الضمة والياء المصوتة إلى الكسرة»[٦٠].

إن رأي ابن سينا أدق من رأي بعض المحدثين ومنهم أحمد الحمو و صلاح الدين حسنين حيث أشار الأخير إلى أن كمية الحركات الطويلة تساوي ضعف كمية الحركات القصيرة»[٦١]. ويذهب داود عبده إلى أن «العلة الواقعة قبل صحيح مجهور تكون أطول من نظيرتها الواقعة قبل صحيح غير مجهور»[٦٢]. ويشير برتيل مالبرج إلى أن «كمية الحركة تعتمد على الساكن التالي لها، فالحركة إذا تلاها ساكن احتكاكي أطول منها إذا تلاها وقفي»[٦٣].

وقد قام زيد خليل القرالة بدراسة اعتمد فيها على التجارب المخبرية في تحديد كمية

الحركة الطويلة إلى القصيرة، ويعد رأيه من أدق الآراء لأنه أجرى تجاربه على عينات لغوية مختلفة وخلص إلى نتائج رقمية، ومما توصل إليه:

لا تنحصر كمية الحركات الطويلة في ضعف كمية الحركات القصيرة، بل تقع في ضعفها في مواطن، وتتجاوز ضعفها في مواطن أخرى، ونسبة زيادة كمية الحركات الطويلة عن ضعف كمية الحركات القصيرة أغلب وأشمل من نسبة حصرها في الضعف.

تتفاوت كمية الحركات تبعاً لملامح الصوامت المجاورة وخاصة الصوامت اللاحقة وذلك من حيث الجهر والهمس والاستمرار والوقف والتضعيف وعدمه[٦٤].

إن ما ذهب إليه المحدثون في كمية الحركات الطويلة إلى مقابلاتها القصيرة فيه نظر، ويدعونا إلى القول إن كمية صوت المد الطويل تساوي أو يمكن أن تساوي ضعف القصير في حالة التجرد والانفراد. ولكن هذه الكمية لا يمكن أن تنطبق على هذه الأصوات في حالة مجاورتها للأصوات الأخرى فصوت المد يطول أو يقصر حسب ما يأتي بعده من أصوات، وطبيعة الصوت التالي هو الذي يحدد طول صوت المد.

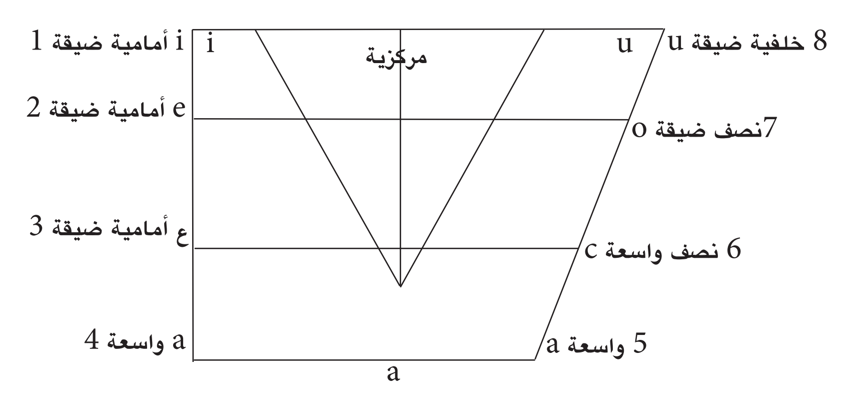
ب . أسس تصنيف الحركات

لقد بالغ علماء اللغة المحدثون في نسبة الحركات إلى دانيال جونز، فقد ذكر جواد النوري في ذلك: «يعد العالم اللغوي دانيال جونز من أوائل اللغويين الذين ابتكروا تصوراً لإمكانات الحركات في النطق الإنساني ولقد تمثل ذلك التصور فيما أطلق عليه، في مجال الدراسات اللغوية بالحركات المعيارية Cardinal Vowels. وقد وصل هذا اللغوي إلى تصوره لهذه الحركات بالنظر إلى عضوين هامين في إنتاج الحركات وتكوينها، وهذان العضوان هما اللسان والشفتان»[٦٥].

ويذكر إبراهيم أنيس أن «أول من عني بهذه المقاييس بروفسور «دانيال جونز» في جامعة لندن إذ استطاع بعد تجارب دقيقة وبحوث متواصلة أن يخرج لنا تلك المقاييس العامة لأصوات اللين»[٦٦].

إن دانيال جونز لم يكن له السبق في تحديد مفهوم الحركات بل ينسب له الجهد الواضح في تحديد منطقة الحركة عند إنتاجها حسب وضع اللسان والشفتين. وقد ورد هذا عند جل العلماء المحدثين.

لقد استطاع دانيال جونز بنظرته إلى موضع اللسان في الفم ونظرته إلى وضع الشفتين في أثناء النطق بالحركات أن يتوصل إلى وضع تسع حركات معيارية. يمثلها الشكل التالي.



الشكل(١)

يوضح هذا الشكل مواقع الحركات العربية التقريبية التي ترد عليها في جدول جونز، وهي داخل الشكل والمعيارية خارجه.

١. يتضح من الشكل السابق أن حركة الكسرة العربية هي أمامية ضيقة وهي الحركة(١) في جدول جونز، وتختلف عن الحركة المعيارية بأنها أقل ضيقاً وأقل أمامية، ويكون مقدم اللسان عند النطق بها أقل ارتفاعاً منه مع المعيارية وتتجه أعلى نقطة في الجزء الأمامي من اللسان نحو الخلف قليلاً ويكون وضع الشفتين مع الحركات الأمامية منفرجاً مع تفاوت في نسبته.

٢. إن حركة الفتحة العربية هي حركة أمامية واسعة تقريباً، إلا أنها تختلف عن الحركة المعيارية الأمامية الواسعة وهي الحركة(٤) في جدول «جونز» بأنها أقل اتساعاً وأقل أمامية، بمعنى أن أعلى نقطة في اللسان عند النطق بالفتحة العربية تكون قريبة من وسطه مع ارتفاع خفيف في هذا الجانب من اللسان وعلى هذا فإن حركة الفتحة العربية هي حركة أمامية ولكنها أقل اتساعاً من الحركة المعيارية(٤)، أو الحركة المعيارية(٥).

٣. إن حركة الضمة العربية هي حركة خلفية ضيقة إلا أنها تختلف عن الحركة المعيارية الخلفية الضيقة وهي الحركة(٨). في جدول "جونز" بكونها أقل ضيقاً وأقل خلفية.

ويذهب جواد النوري إلى أن الحركة التي تصاحب أصوات القلقلة هي حركة مركزية يقول: "وتعد الحركة المصاحبة للحروف، التي اصطلح القدماء من اللغويين العرب على تسميتها بحروف القلقلة من قبيل الحركة المركزية"(٦٧).

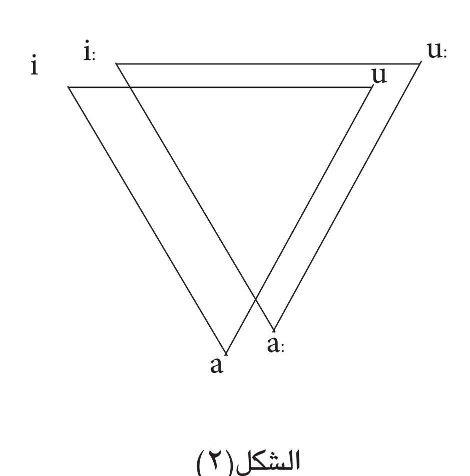
إن ما قام به «جونز» في جدوله لا يتعدى موضع اللسان وشكله فقد أخذ أعلى نقطة للسان قبل أن يتصل بموضع نطق آخر خوفاً من أن يدخل في نوعية صوتية أخرى، وهي الصوامت، وتدرج في الحركات من فاصل الصامت إلى الانبساط في اللسان. ووضع هذه الحركات. فاللسان عند جونز لا يحد في نقطة ملزمة بل القلة والكثرة لها نصيب كبير في توصيف جونز.

علاوة على ذلك إن ما ذهب إليه النوري من اعتبار الصويت الذي يلحق حروف العلة من قبيل الحركة المركزية فيه نظر؛ لأن اللسان مع هذه الأصوات لا يتخذ موضعاً محايداً، فالحركات المركزية كما يعرفها النوري هي: «الحركات التي ترد غير منبورة في العادة ويتم إنتاجها عندما يكون اللسان في وضع محايد؛ أي عندما يكون في وضع مركزي متوسط غير مرتفع ولا منخفض، وكذلك فإنه، أي اللسان، لا يكون أمامياً ولا خلفياً»(٦٨). فاللسان مع أصوات القلقلة يتخذ أوضاعاً مختلفة تبعاً للصوت المنطوق من تلك الأصوات.

وقد أشار أحمد مختار عمر إلى اختلاف الحركات الطويلة عن القصيرة من حيث المواضع النطقية يقول: «العلل الطويلة: أفردنا العلل الطويلة عن القصيرة واعتبرنا كلاً منها فونيمات مستقلة لما يأتي:

أ. أن التقابل بين الحركات الطويلة والحركات القصيرة قد يؤدي إلى تغير المعنى أو الصيغة، ومعنى هذا أن كلاً منهما فونيم مستقل.

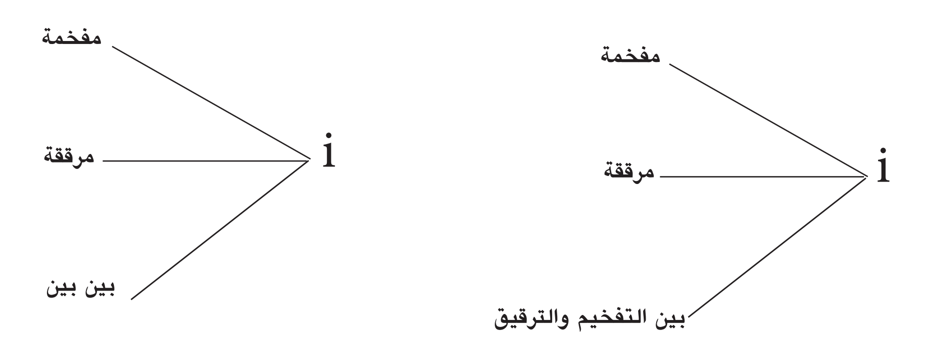
ب. أن الدراسة التشريحية أثبتت أن الخلاف بين العلل الطويلة والعلل القصيرة(منعزلة) ليس خلافاً في الكمية فقط، وإنما في الكيفية كذلك. فموقع اللسان مع إحدى العلتين المتقابلتين مختلف قليلاً كما يتضح من الرسم الآتي:



الشكل(٢)

ويتضح من الشكل السابق تراجع عضلات اللسان إلى الخلف، وارتفاعه إلى الأعلى، في حال نطق الحركات الطويلة[٦٩]. وهذه الحركات قد تأتي مفخمة، ومرققة وبين التفخيم والترقيق، حسب السياق الصوتي الذي تقع فيه كل حركة منها، وهذه التنوعات هي من قبيل الألوفونات ويمكن بيان ذلك من خلال هذا المخطط الحركي.

كسرة قصيرة:



الشكل(٣)

وهكذا تأتي الفتحة القصيرة والطويلة، والضمة القصيرة والطويلة.

يتضح مما سبق أن اللغة العربية تشتمل على ثلاثة فونيمات للحركة القصيرة وهي: فونيم الفتحة القصيرة /a/، وفونيم الكسرة القصيرة /i/ وفونيم الضمة القصيرة /u/. ومثلها في العدد للحركات الطويلة، وهي فونيم الفتحة الطويلة ويمكن أن يرمز لها بـ /a:/ أو /aa/ والكسرة الطويلة /i:/ أو/ii/ والضمة الطويلة/u:/ أو /uu/.

وهذه الفونيمات الستة قد تتعرض بسبب السياق الصوتي إلى تنوعات نطقية فكل فونيم له ثلاثة تنوعات نطقية. أحد هذه التنوعات فونيم وهو النطق المرقق للحركة، لأن الحركة المفخمة ترد مع أصوات التفخيم الكلي وهي: الصاد والضاد والطاء والظاء، والحركة ذات التفخيم المتوسط مع الصوامت ذات التفخيم الجزئي وهي: الغين والخاء والقاف، وترد مرققة مع الصوامت الباقية. وهي الأكثر عدداً فالحركة تأخذ طابعها الوصفي من صيغة ورودها. فهي مع المرققة أكثر ما تكون لذلك عدت الحركة المرققة فونيماً وما تبقى من قبيل الألوفونات. فالحركات في العربية بحسب النطق الفعلي السياقي لها هي ثماني عشرة حركة قصيرة وطويلة، غير أنه من الناحية الفونولوجية أي من ناحية كونها قادرة على تغيير الدلالة فإن اللغة العربية تشتمل على ست حركات.

إن تحديد الموضع النطقي للحركات كالصوامت أمر غير مقبول؛ لأنها لا تحدث من اعتراض يؤدي إلى احتكاك أو إغلاق يؤدي إلى انفجار، فالمواضع النطقية للحركات متداخلة فتيار الهواء المنتج لها يأتي من الرئة، والمصدر الرئيس في إنتاجها ووضوحها السمعي يتأتى من الوترين الصوتيين، واللسان بأوضاعه المختلفة، والحنك السفلي والشفاه، إضافة

إلى اللهاة حيث تنبه إليها عبد الرحمن أيوب يقول: "وتعمل اللهاة في إنتاج الحركات عملاً مهماً حيث تقوم بإغلاق الفراغ الأنفي ليستمر الهواء في مجراه الفموي"[٧٠].

ولهذا توصف الحركات حسب ملامحها النطقية، وحسب الأعضاء النطقية العاملة في إنتاجها على النحو الآتي:

ويمكن أن تصنف كما يأتي:

١. الكسرة /i/ حركة أمامية مغلقة غير مدورة. / صائت أمامي مغلق منفرج قصير
٢. الفتحة /a/ حركة أمامية مفتوحة غير مدورة. / صائت أمامي مفتوح محايد قصير
٣. الضمة /u/ حركة خلفية مغلقة مدورة(٧١). / صائت خلفي مغلق مضموم قصير، وقام جواد النوري بتقديم وصف للحركات كما يأتي:

١. الكسرة العربية /i/ حركة أمامية ضيقة غير مستديرة وترد هذه الحركة قصيرة وطويلة.
٢. الفتحة العربية /a/ حركة أمامية أو خلفية، تميل إلى الاتساع ولا تكون الشفتان عند النطق بها في وضع استدارة، وترد هذه الحركة قصيرة وطويلة.
٣. الضمة العربية /u/ حركة خلفية ضيقة مستديرة وترد هذه الحركة قصيرة وطويلة[٧٢].

ويبدو أن النوري خلط في وصفه للفتحة بين الفونيم والألفون لأن الوصف الفونيمي للفتحة أنها أمامية، أما وصفه لها بالخلفية فهو عند مصاحبتها للأصوات المفخمة فهو تنوع سياقي ألوفوني.

ويقصد بالأمامية تلك الحركات التي تكون نقطة إنتاجها واقعة في الجزء الأمامي من الفم، والخلفية تلك التي تقع نقطة إنتاجها في الجزء الخلفي من التجويف الفموي، والضيقة عندما يكون الانفتاح في الفم ضيقاً واللسان مرفوعاً نحو الجزء الأمامي أو الجزء الخلفي من سقف الحنك الأعلى بقسميه: الغار والطبق.

ويقصد بالواسعة الحركات التي تُنتَج عندما يكون اللسان في وضع منخفض في الفم، وبالمستديرة الحركات التي يصاحب نطقها استدارة في الشفتين، وغير المستديرة عكس ذلك.

ج - أصوات اللين عند المحدثين

تميز المحدثون عن القدماء في التفريق بين أصوات المد(الحركات الطويلة) وأصوات اللين(و، ي) بوصفهما نصفي حركة.

يقول إبراهيم أنيس: «هناك صوتان بين الأصوات اللغوية يستحقان دائماً أن يعالجا علاجاً خاصاً؛ لأن موضع اللسان معهما قريب الشبه بموضعه مع أصوات اللين، ومع هذا فقد دلت التجارب النطقية على أننا نسمع لهما نوعاً ضعيفاً من الحفيف وهذان الصوتان هما ما اصطلح علماء العربية على تسميتهما بالياء والواو في مثل بيت ويوم»[٧٣].

وقد خلط إبراهيم أنيس شأنه شأن القدامى من علماء اللغة بين اللين والمد. وقد عنى بقوله أصوات اللين الحركات الطويلة(حروف المد) ويمكن أن يعزى هذا الخلط إلى البواكير في الدراسات الصوتية الحديثة التي ما زالت متأثرة بمصطلحات القدامى(٧٤).

ويذهب عبد الصبور شاهين إلى اعتبارهما تتابع حركات يقول: «ويبقى من أصوات الهجاء التي عرفتها العربية صوتان هما: الواو والياء، أو حرفا العلة كما يقال، وهما من الناحية الصوتية نتيجة تتابع الحركات المختلفة طويلة أو قصيرة، فإذا تتابعت حركتا الفتحة والكسرة هكذا: a + I، وإذا تتابعت حركتا الفتحة والضمة هكذا: a + u ؛



أي أن الانزلاق بين الحركتين المختلفتين هو في الحقيقة ما يسمى بالياء والواو"(٧٥).

يشير كلام عبد الصبور شاهين إلى أن الياء مزيج من حركتين قصيرتين متباعدتين والواو كذلك ولكنهما يشتركان في المكون الأول وهو الفتحة القصيرة. أي أن الياء في رأيه مزيج من موقعين: موقع الفتحة وانزلاقها باتجاه الكسرة، والواو مزيج من موقع الفتحة باتجاه الضمة، فإذا كان هذا الكلام صحيحاً؛ **فماذا ينتج عن تتابع الكسرة مع الفتحة أو الضمة مع الفتحة؟ هل ينتجان الصوتين أنفسهما؟**

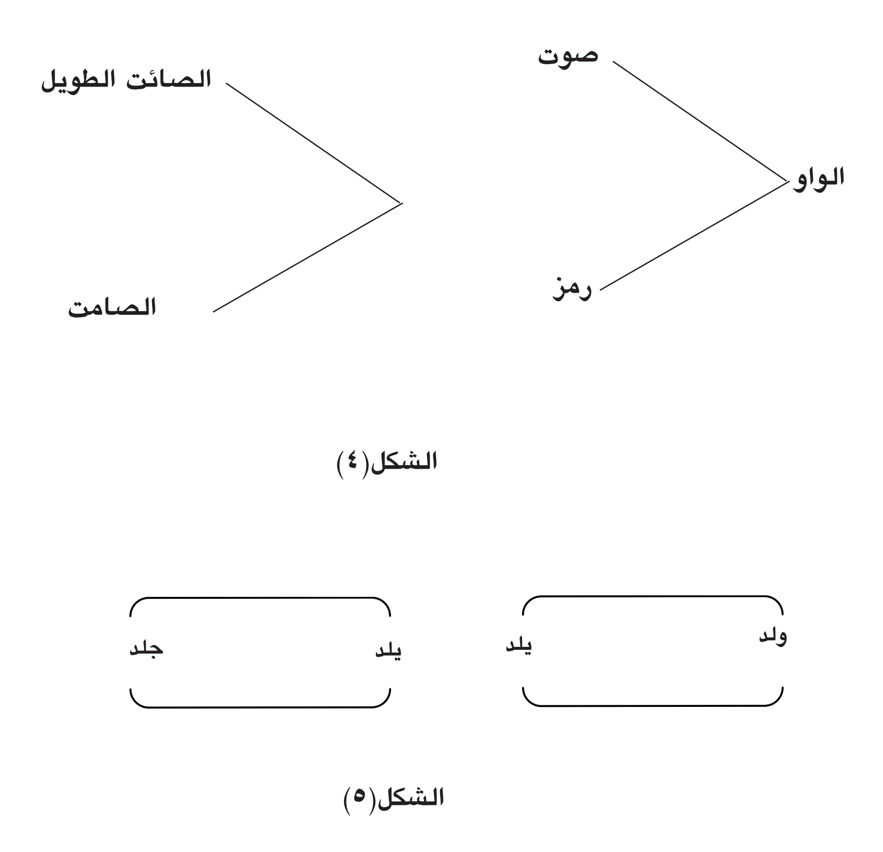
إن معالجة هذين الصوتين منفردين يكمن في طبيعة إنتاجهما، فعند النطق بالياء نلحظ أن اللسان يكون تقريباً في موضع النطق بالكسرة القصيرة غير أن الفراغ بين اللسان ووسط الحنك الأعلى حين النطق بالياء يكون أضيق منه في حالة نطق الكسرة القصيرة فنسمع له ذلك النوع الضعيف من الحفيف، وكذلك الواو لا فرق بينها وبين الضمة القصيرة إلا في أن الفراغ بين أقصى اللسان، وأقصى الحنك في حالة النطق بالواو أضيق منه في حالة النطق بالضمة.

وينفي كمال بشر الطبيعة الانزلاقية لهذين الصوتين يقول: "إن الواو والياء في هذا الموقع ونحوه ليستا جزءين من حركتين(ولا حركتين بالطبع)، بل هما صوتان صامتان Consonants أو ما يسميان بالاسم(أنصاف حركات) لشبههما الواضح بالحركات في النطق. وهذا الذي ندعيه مبني على أساس الخواص النطقية والوظيفية للصوتين... والحكم بأن الواو والياء في نحو حوض وبيت جزءان من حركة مركبة خطأ مشهور وقع فيه المستشرقون منذ زمن طويل"(٧٦).

وبين محمد جواد النوري آلية إنتاج هذين الصوتين بقوله: «ويقصد بها تلك الأصوات التي يكون التضييق، الذي بواجهة تيار الهواء، عند إنتاجها، ضئيلاً، بيد أن نسبة هذا

التضييق تكون أقل من نسبته عند إنتاج الصوامت، وأكثر من نسبته عند إنتاج الحركات. أو هي الأصوات التي تقوم بدور صامت، ولكن تنقصها بعض الخصائص الفوناتيكية المرتبطة بالصوامت، مثل: الاحتكاك، والانغلاق ويشمل ذلك صوتي الواو والياء في نحو: ولد، ويلد»[٧٧].

ويذكر عبد القادر عبد الجليل وظيفة هذين الصوتين بقوله: «أما أشباه الصوامت(أنصاف الصوائت) في اللغة العربية فهما الصوتان(الواو)، و(الياء) فكما هو معلوم أن الواو صوت ورمز



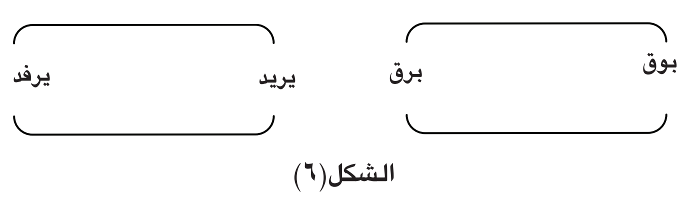
الشكل(٤)

الشكل(٥)

وتظهر في التراكيب اللغوية لتحتل موقعين:

الأول: موقع الأصوات الصامتة لتقوم بوظيفتها في شكل الصورة الدلالية

الثاني: موقع الصوائت الطويلة لتقوم بوظيفتها في تشكيل معالم الدلالة، وتبادل الموقع»[٧٨]:



الشكل(٦)

ويذهب النوري إلى أن الفرق بين هذين الصوتين والحركات الصرفة في طبيعة تيار الهواء المنتج لهما. يقول: "ومن المعلوم في الدرس الصوتي، أن الواو (w) والياء(y) تشتركان مع الحركات الصرفة vowels، وهي الفتحة، والكسرة، والضمة، في الملمح التقاربي، Approximant feature، ويقصد بهذا الملمح اقتراب عضو نطق من عضو نطق آخر دون أن يصل هذا التقارب بينهما حد الاحتكاك ويطلق بعض اللغويين على هذا النوع من الأصوات مصطلح الصوت المستمر غير الاحتكاكي بيد أن الفارق بين نصفي الحركة الواو والياء من جهة والحركات الأخرى من جهة أخرى، يكمن في أن ممر الهواء في القناة الصوتية في أثناء إنتاج الأصوات الأولى يكون أقل اتساعاً من الوضع الذي يكون عليه ذلك الممر في أثناء إنتاج الحركات، ولكن الجامع بين هذين النوعين من الأصوات. هو أن مجرى الهواء في أثناء عملية الإنتاج الصوتي يكون أكثر انفتاحاً واتساعاً مما هو عليه في أثناء الصوامت الاحتكاكية"[(٧٩)].

وقد اهتم أحمد مختار عمر بإبراز دور الواو على أنها نصف علّة، وعلة وكذلك صوت الياء على أنها نصف علة وعلة، وقد رصد ثلاثة فروق هي:

- قلة وضوح الأولى بالنسبة للثانية.
- ضيق المجرى مع الأولى بالنسبة للثانية، ولذا فكما ألحقها بعضهم بالعلة، واعتبرها نصف علة (Semi-vowel) ألحقها آخرون بالساكن، واعتبرها نصف ساكن(Semi- consonant).
- الخواص الوظيفية لكل منهما مختلفة عن الأخرى، فالواو والياء لكونهما نصفي علّة تقومان بدور الأصوات الساكنة وتقعان موقعها تماماً في التركيب الصوتي للغة العربية"[(٨٠)].

فالواو والياء في العائلة الصوتية العربية تقعان ضمن الصوامت بما فيها من تضييق في مجرى الهواء المنتج لهما، ولكنه لا يصل إلى حد الاحتكاك التام. وتتبادل مع الصوامت في الموقع حيث يبدأ بهما المقطع الصوتي في العربية، وهذا دليل على صامتية كل منهما. وتشبهان الحركات الطويلة من حيث آلية مرور تيار الهواء المنتج لها؛ إذ لا يحدث احتكاك في أثناء إنتاجها.

ثالثاً: حروف المد واللين بين القدماء والمحدثين

من المفاهيم الشائعة لدى القدماء «أن حرف المد هو حرف العلة الساكن المسبوق بحركة من جنسه مثل الألف في قام وسار وكتاب، والواو في نور، وسوق، وعجوز، والياء

في دين وسعيد وعرين، وحرف اللين هو الواو أو الياء الساكنتان المسبوقتان بفتحة مثل الواو في حوْض، والياء في بيْت»،[٨١] وقد جمع القدماء بين حروف المد واللين في مجموعة صوتية واحدة، على الرغم من التفريق النظري بينهما، وملاحظة أن الحروف اللينة تتصرف كالحروف الصحيحة في مواضع متعددة. وقد نص سيبويه في باب الوقف في الواو والياء والألف على أن «هذه الحروف غير مهموسات وهي حروف لين ومد، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها»[٨٢]. ونلحظ أن سيبويه جمع بين الألف والواو والياء، وأسقط عليها الصفات نفسها، وأطلق عليها مداً وليناً مع عدم التفريق بين خاصية المد وخاصية اللين.

ويذكر في موضع آخر: «وإذا كانت الواو قبلها ضمة، والياء قبلها كسرة فإن واحدة منها لا تدغم إذا كان مثلها بعدها. وذلك قولك: ظلموا واقداً وأظلمي ياسراً... وإنما تركوا المد على حاله في الانفصال، كما قالوا: قد قووِل حيث لم تلزم الواو وأرادوا أن تكون على زنة قاوَل، فكذلك هذه، إذا لم تكن الواو لازمة لها، أرادوا أن يكون ظلموا على زنة ظلما واقداً وقضى ياسراً»[٨٣].

وكلام سيبويه السابق يدل على أنه فرق بين المد واللين، ومنع الإدغام حرصاً على خاصية المد في الواو والياء. وجعلهما مثل الألف، والألف لا تكون إلا حرف مد(فتحة طويلة).

لم يكن القدماء يميزون بين اللين والمد، وخلطوا بين المصطلحين، وساووا بينهما ومن الأمثلة على هذه المساواة ما ورد عند سيبويه حيث يقول: «... ولا يكون هذا في زيْد وعوْن ونحوهما لأنهما حرفا مد... وكذلك الألف»[٨٤].

وقد أطلق ابن جنى اللين على حروف المد يقول: «... وذلك أنهم أجروا فعولة مجرى فعيله لمشابهتهما إياها من عدة أوجه... ثم إن ثالث كل واحدة منهما حرف لين، يجري مجرى صاحبه»[٨٥]. والواو والياء في قول ابن جنى هما حركتان طويلتان، أو حرفا مد.

ويذكر جعفر عبابنه «بل حاول بعض العلماء تصنيف الألف على أنها حرف مدولين معاً؛ لأنها ساكنة مسبوقة بحركة من جنسها، وساكنة مسبوقة بفتحة. وهذا قول غير صحيح بتاتاً، ومبني على استدلال منطقي لا على الحقائق الصوتية نفسها، فالألف من حيث طبيعتها الصوتية لا تكون إلا حرف مد أي حركة طويلة خالصة»[٨٦].

وثمة خلاف بين القدماء والمحدثين في النظرة إلى حروف المد واللين، فالمحدثون ينكرون أن تسبق حروف المد بحركات من جنسها، لأن حروف المد حركات. يقول إبراهيم أنيس: «ولكن القدماء ضلوا الطريق السوّي حين ظنوا أن هناك حركات قصيرة قبل حروف المد، فقالوا مثلاً إن هناك فتحة على التاء في كتاب، وكسرة تحت الراء في كريم، وضمة فوق القاف في يقول والحقيقة أن هذه الحركات في الحقيقة لا وجود لها في تلك المواضع... ويظهر أن الكتابة العربية في صورتها المألوفة من وضع الفتحة على التاء والكسرة تحت الراء والضمة فوق القاف قد

جعل القدماء يتوهمون وجود حركات قصيرة في هذه المواضع»[٨٧].

إن ما ذهب إليه إبراهيم أنيس من أن الكتابة سبب في هذا الوهم ليس فيه شيء من الدقة؛ لأن الكتابة العربية وصفت الظاهرة حسب ما اعتقد علماء اللغة، فليست اللغة سبباً في هذا الوهم، وإنما الاعتقاد لدى علماء اللغة القدامى هو ما جعلهم يضعون الرمز الكتابي.

ويذكر كمال بشر: «أما أن هذه المدات مسبوقة بحركات من تجانسها فهو وهم لا أساس له من الصحة؛ ليست هناك حركات سابقة أو لاحقة وإنما المدات نفسها هي الحركات وهي الحركات الطويلة»[٨٨].

وما ذهب إليه المحدثون ينسجم مع القوانين المقطعية للغة العربية فالنسيج المقطعي للغة العربية يمنع أن تتوالى حركتان في المقطع الواحد، والمقصود بالحركتين هنا القصيرة المتوهمة + الحركة الطويلة الحقيقية، فلا نستطيع أن نقول كتاب ki/taaa/ bun فالمقطع الثاني لا وجود له في اللغة العربية فلا بد من وجود ساكن يفصل بين الحركتين.

وقد نص على هذا عبد الصبور شاهين حيث قال: "... فالقاف في قال والميم من رمى– كلا الحرفين محتمل لحركة تسبق الألف، وهو خلط لا تقبله الدراسات الحديثة؛ لأن القاف متحركة بالفتحة الطويلة بعدها وكذلك الميم، وإذا كانت الفتحة الطويلة التي أخذت هنا صورة الألف تساوي فتحتين قصيرتين، فليس بمعقول أن تسبقهما فتحة ثالثة؛ لأننا ننطق في الواقع فتحتين اثنتين لا غير"[٨٩].

ومن أوجه الخلاف بين القدماء والمحدثين سكون حرف المد، إذ إنها حركات والحركة لا تكون ساكنة؛ لأن الحركة ضد السكون وقد نص على ذلك كمال بشر حيث يذكر: «إن علماء العربية جروا على التوسع في مفهوم الكلمة(ساكن أو ما بإطلاق– خطأ– على حروف المد) (الألف والواو والياء) أو ما يسمى الحركات الطويلة وهذا – كما ترى – إطلاق مضلل.... لا يصح بحال إطلاق اسم الساكن عليها في أي موقف كانت»[٩٠]

ويفصل المحدثون الواو والياء اللينتين عن سائر حروف المد، ويلحقونهما من حيث النوع بالواو والياء المتحركتين مستندين في ذلك إلى فروق أساسية بين حروف المد من ناحية، والواو والياء المتحركين أو اللينتين من ناحية أخرى، فحروف المد لا يصاحب نطقها أي احتكاك أو اعتراض لمجرى الهواء ولا تفتح المقاطع ولا تغلقها، ويسمى المقطع المنتهي بها مفتوحاً، ولا تكون من حروف المادة الأصلية.

أما الواو والياء اللينتان، أو المتحركتان(نصفا الحركة) فيرافق نطقهما احتكاك ما، أي نوع ضعيف من الحفيف، وتفتحان المقاطع وتغلقانها، فالواو المتحركة في(وَقَف)wa/qa/fa تفتح مقطعاً، والواو الساكنة في(موْقف)، maw/qif تغلق قطعاً[٩١].

والمقطع العربي يجب أن تكون قمته أو نواته عنصراً حركياً أما الواو والياء اللينتان فلا يمكن لهما أن تكوّنا قمة المقطع، والمقطع هو: «نمط أدنى من التجمعات الفونيمية، تقوم فيها وحدة الحركة بدور النواة، وتكون مسبوقة ومتلوة بوحدة صامتية أو تجميع صامتي ممكن الوقوع»[٩٢].

ويذكر عبابنة أنه «لا بد لكل مقطع من عنصر صائت يشكل قمته أو نواته وهو الجزء الذي يحمل أقصى التوتر فيه، فلا يقوم بهذه الوظيفة في العربية إلا حركة قصيرة أو حركة طويلة(أي حرف مد)، ولا تقوم الواو أو الياء اللينتان أو المتحركتان بهذه الوظيفة على الرغم من شبههما بالحركات لاتساع مخرجهماC[٩٣].

إن حروف المد عند المحدثين حركات طويلة خالصة، فالألف هي الفتحة الطويلة وواو المد هي الضمة الطويلة وياء المد هي الكسرة الطويلة، وذلك بسبب الطبيعة الإنتاجية لهذه الأصوات، حيث يخرج تيار الهواء المنتج لها دون أن يتعرض لأي تضييق أو أيّ تعويق يعوق تيار الهواء المنتج لها، فيخرج حراً طليقاً.

غير أن صوتي اللين والواو(w)والياء(y)في عملية إنتاجهما يرتفع اللسان في نقطة للياء شبه الحركة يؤدي إلى سماع احتكاك ضعيف، وفي الواو شبه الحركة تنضم الشفتان بدرجة أكثر من انضمامها في نطق واو المد(الضمة الطويلة)(uu) ويتراجع اللسان ويرتفع مؤخره لدرجة وقوع الاحتكاك الخفيف.

لذلك تقع الواو والياء اللينتان أو المتحركتان موقعاً فريداً في النظام الصوتي العربي، فهي تحمل من الصوامت صفة الاحتكاك وتكون من أصول الجذر، وتفتتح بها المقاطع وتقفلها، علاوة على أنها تقبل الحركة والسكون، وتشبه الحركات باتساع مخرجها.

ويذكر جعفر عبابنة: "أن المحدثين لا يقبلون كثيراً من حجج القدماء والأسس التي انطلقوا منها في بعض معالجاتهم الصرفية مثل مساواتهم في النظرة بين حروف المد واللين، ومثل القول بأن حروف المد ساكنة، وأنها مسبوقة بحركات من جنسها"[٩٤].

لقد خلط القدماء في توصيف أصوات المد واللين، وبناء على ذلك خلطوا في تفسير بعض السلوكات الصرفية لعدم تفريقهم بين هاتين المجموعتين الصوتيتين. فالواو والياء في الدرس الصوتي الحديث يقعان تحت مجموعتين صوتيتين: الأولى وهي الحركات الطويلة كما في يدعو ويقضي، والثانية هي: أنصاف الحركات كما في بيْت ولوْن، ووَعد، ويعد ولكنهما من جيث الوظيفية ينضمان إلى الصوامت. أما من ناحية صوتية فهي تشبه الحركات ولكنها أقل وضوحاً في السمع من الحركات؛ بسبب ذلك التضييق المصاحب لإنتاجهما، ومن ناحية وظيفية(فونولوجية) تقوم بدور الصامت من حيث النسيج المقطعي

للغة العربية.

الهوامش:

١. بشر، كمال، علم اللغة العام(الأصوات) ص ١٤٧.
٢. ابن النديم، محمد بن اسحق، الفهرست، ص ٤٠.
٣. الداني، أبو عمر عثمان بن سعيد، المحكم في نقط المصاحف، ص٧.
٤. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، كتاب سيبويه، ص ٤/٢٤١-٢٤٢.
٥. المرجع نفسه، ص ٤/٤٣٧.
٦. الفراء، أبو زكريا يحيى بين زياد، معاني القرآن، ٢/١٣.
٧. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، ٢/٣١٥.
٨. ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/١٩.
٩. ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، ص٨٤.
١٠. سيبويه، كتاب سيبويه، ٤/٤٣٥-٤٣٦.
١١. ابن جني، سر الصناعة، ١/١٧.
١٢. سيبويه، كتاب سيبويه، ٤/ ٤٣٥.
١٣. المرجع نفسه، ٤/٤٣٥-٤٣٦.
١٤. المرجع نفسه، ٤/٤٣٦.
١٥. ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/٨.
١٦. الإستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، ٣/٢٦١.
١٧. ابن عصفور، أبو الحسن علي بن مؤمن، الممتع في التصريف، ٢/٦٧٣-٦٧٤.
١٨. ابن يعيش، أبو البقاء موفق الدين، شرح المفصل، ١٠/١٣٠-١٣١.
١٩. ابن سينا، رسالة أسباب حدوت الحروف، ص ٨٤.
٢٠. عبابنة، جعفر نايف، التقاء الساكنين بين الحقيقة والوهم، ص٤٦.
٢١. ابن أبي طالب، مكي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص١٠١-١٠٢.
٢٢. سيبويه، كتاب سيبويه، ٤/٤٤٦.
٢٣. المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
٢٤. المبرد، المقتضب، ١/٢٠٤.

٢٥. ابن يعيش، شرح المفصل، ١٠/١٣٤-١٣٦.
٢٦. ينظر: ابن عصفور، الممتع في التصريف، ٢/٦٣٣.
٢٧. سيبويه، كتاب سيبويه، ٤/٤٤٢.
٢٨. المرجع نفسه والصفحة نفسها.
٢٩. ابن يعيش، شرح المفضل، ١٠/١٣٩.
٣٠. ابن السراج، محمد بن سهل، الأصول في النحو، ٣/٤١٢.
٣١. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص٢٦.
٣٢. شاهين، عبد الصبور، المنهج الصوتي للبنية الصرفية، ص ٢٨-٢٩.
٣٣. السعران، محمود، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص١٨٤.
٣٤. عبد التواب، رمضان، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص٤٢.
٣٥. عبد الجليل، عبد القادر، اللسانيات الحديثة، ص ٣١٨.
٣٦. المرجع نفسه، ص٣١٨-٣١٩.
٣٧. شاهين، عبد الصبور، المنهج الصوتي للبنية العربية، ص٢٧.
٣٨. المرجع نفسه، ص٢٩.
٣٩. شاهين، عبد الصبور، في علم اللغة العام، ص١١٩.
٤٠. المرجع نفسه، ص١٢١.
٤١. النوري، محمد جواد، علم أصوات العربية، ص١٣٢.
٤٢. النوري، محمد جواد، وحمد علي خليل، فصول في علم الأصوات، ص١٢٢.
٤٣. باي، ماريو، أسس علم اللغة، ص٥٣.
٤٤. مالبرج، برتيل، علم الأصوات، ص٧٨.
٤٥. المطلبي، غالب، في الأصوات اللغوية، دراسة في أصوات المد العربية، ص ١٦٨.
٤٦. رمضان، محي الدين، في صوتيات العربية، ص٢٠٢-٢٠٣.
٤٧. ابن جني، الخصائص، ١/٦٠.
٤٨. المرجع نفسه، ١/٥٧.
٤٩. سيبويه، كتاب سيبويه، ٤/١٧٤.
٥٠. بشر، كمال، دراسات في علم اللغة، ص ٢١٨.

٥١. المرجع نفسه، ص ٢١٩–٢٢٠ بتصرف.
٥٢. المرجع نفسه، ص ٢٢٢.
٥٣. ابن جني، الخصائص، ١/٥٩.
٥٤. أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ص ١٥٥.
٥٥. النوري محمد جواد، علم أصوات العربية، ص١٩٢.
٥٦. الحمو، أحمد، محاولة ألسنية، في الإعلال، مجلة عالم الفكر، مج٢٠، ع٣٩.
٥٧. أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ص١٥٨.
٥٨. المرجع نفسه، ص ١٥٩.
٥٩. ابن جني، الخصائص، ٣/١٢٥.
٦٠. ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، ص ٨٥.
٦١. ينظر: حسنين، صلاح الدين، المدخل إلى علم الأصوات دراسة مقارنة، ص ٤١.
٦٢. عبده، داود، دراسات في علم الأصوات العربية، ص٣١.
٦٣. مالبرج، برتبل، علم الأصوات.
٦٤. القرالة، زيد خليل، الحركات في اللغة العربية، ٢٥–٦٠ بتصرف.
٦٥. النوري، محمد جواد، علم أصوات العربية، ص١٨٤.
٦٦. أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ص ٣١.
٦٧. النوري محمد جواد، علم أصوات العربية، ص١٨٧.
٦٨. المرجع نفسه، ص ١٨٧–١٨٨ بتصرف.
٦٩. عمر، أحمد مختار.، دراسة الصوت اللغوي، ص٢٨٢–٢٨٣
٧٠. أيوب عبد الرحمن، أصوات اللغة، ص ١٨٥
٧١. استيتة، سمير، ظاهرة الوضوح السمعي في الأصوات جهاز مبتكر لقياسها، أبحاث اليرموك، مج٦، ع ١.
٧٢. ينظر النوري، علم أصوات العربية، ص ١٩٢–١٩٦ بتصرف
٧٣. أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ص ٤٢
٧٤. .ينظر المرجع السابق، ص ٣٨–٤٠
٧٥. شاهين، عبد الصابور، المنهج الصوتي للبنية العربية، ص ٣٠

٧٦. بشر، كمال، دراسات في علم اللغة، ص ٧١– ٧٢

٧٧. النوري، محمد جواد، علم أصوات العربية، ص ١٣٢

٧٨. عبد الجليل، عبد القادر، علم اللسانيات الحديثة، ص ٣٢٦– ٣٢٧.و الأصوات اللغوية، ص ١٠٨

٧٩. النوري، محمد جواد، علم أصوات العربية، ص٣٢٣

٨٠. مختار، أحمد عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص ٣٣٠

٨١. عبابنة، جعفر، التقاء الساكنين بين الحقيقة والوهم، ص ٤٦

٨٢. سيبويه، كتاب سيبويه، ٤/١٧٦

٨٣. المرجع نفسه، ٤/٤٤٢.

٨٤. المرجع نفسه، ٤/١٧٦.

٨٥. ابن جني، الخصائص، ١/١١٥.

٨٦. عبابنة، جعفر، التقاء الساكنين بين الحقيقة والوهم، ص ٤٧

٨٧. المرجع نفسه، ص٥١.

٨٨. بشر، كمال، دراسات في علم اللغة، ص ٢٠١

٨٩. شاهين، عبد الصبور، المنهج الصوتي للبنية العربية، ص ٣٥.

٩٠. بشر، كمال، دراسات في علم اللغة، حاشية(١١)، ص ٥٥

٩١. عبابنة، جعفر، التقاء الساكنين بين الحقيقة والوهم، ص ٤٨

٩٢. النوري، محمد جواد، فصول في علم الأصوات، ص ١٦٦ –١٦٧.

٩٣. عبابنة، جعفر، التقاء الساكنين بين الحقيقة والوهم، ص ٤٩

٩٤. المرجع نفسه، ص ٥١.

المصادر والمراجع:

١. الإستراباذي، رضي الدين محمد بن حسن. ت(٦٨٦ هـ) شرح شافية ابن الحاجب،(تحقيق: محمد نور الحسين وآخرين)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢.
٢. إستيتيه، سمير(١٩٨٨)، ظاهرة الوضوح السمعي في الأصوات، جهاز مبتكر لقياسها، أبحاث اليرموك.
٣. أنيس: إبراهيم(١٩٧٥) الأصوات اللغوية، ط٥، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
٤. أيوب، عبد الرحمن(١٩٦٨) أصوات اللغة، ط٢، مصر: مطبعة الكيلاني.
٥. باي، ماريو(١٩٩٨) أسس علم اللغة،(ترجمة وتعليق: أحمد مختار عمر)، ط٨، القاهرة: عالم الكتب.
٦. بشر، كمال(١٩٦٩) دراسات في علم اللغة، القاهرة، دار المعارف.
٧. ـــــ،(١٩٨٠)، علم اللغة العام–الأصوات، ط١، القاهرة: دار المعارف.
٨. ابن جني، أبو الفتح عثمان(٣٩٢هـ)(١٩٩٢) الخصائص، ط٢، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر.
٩. ـــــ،(١٩٨٥)، سر صناعة الأعراب،(تحقيق: حسن الهنداوي)، دمشق: دار القلم.
١٠. الحمو، احمد(١٩٨٩)، محاولة ألسنية في الإعلال، مجلة عالم الفكر، مجلد٢، عدد٣٩.
١١. حسنين، صلاح الدين.(١٩٨١). المدخل إلى علم الأصوات دراسة مقارنة، ط١، دار الاتحاد العربي للطباعة والنشر.
١٢. الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد.(د.ت). المحكم في نقط المصاحف، تحقيق: عزة حسن، دمشق، ١٩٦٠.
١٣. رمضان، محيي الدين.(د. ت). في صوتيات العربية، عمان: مكتبة الرسالة الحديثة.
١٤. ابن السراج، محمد بن سهيل.(ت٣١٦هـ)، الأصول في النحو،(تحقيق: عبد الحسين الفتلي)، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥.
١٥. السعران، محمود.(د. ت). علم اللغة، مقدمة للقارىء العربي، بيروت: دار النهضة.
١٦. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر،(ت ١٨٠هـ)، كتاب سيبويه،(تحقيق: عبد السلام هارون)، بيروت: عالم الكتب والطباعة والنشر، ١٩٦٦.
١٧. ابن سينا، الحسين بن عبد الله.(ت٤٢٨هـ)، رسالة أسباب حدوث الحروف،(تحقيق: محمد حسن الطيان، ويحيى مير العلم)، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٣.
١٨. شاهين، عبد الصبور،(١٩٨٠)، المنهج الصوتي للبنية العربية، بيروت: مؤسسة الرسالة.
١٩. ابن أبي طالب مكي،(ت ٤٣٧هـ)، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة،(تحقيق:

أحمد حسن فرحات)، دار الكتب العربية، ١٩٧٤.

٢٠. عبابنة، جعفر نايف(٢٠٠٤)، التقاء الساكنين بين الحقيقة والوهم، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عدد ٦٦، كانون ثاني – حزيران.

٢١. عبد التواب، رمضان،(١٩٨٢)، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، القاهرة مكتبة الخانجي.

٢٢. عبده، داود،(١٩٧٠)، دراسات في علم الأصوات العربية، الكويت، مؤسسة الصباح.

٢٣. عبد الجليل، عبد القادر،(٢٠٠٢)، علم اللسانيات الحديثة، عمان: دار الصفاء.

٢٤. ابن عصفور، أبو حسن علي بن مؤمن، الممتع في التصريف، ط٣،(تحقيق: فخر الدين قباوة)، بيروت: دار الأفاق الجديدة، ١٩٧٨.

٢٥. عمر، أحمد مختار.(١٩٧٦).دراسة الصوت اللغوي، ط١، القاهرة: عالم الكتب.

٢٦. الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد،(ت ٢٠٧هـ)،(١٩٨٠). معاني القرآن، بيروت: عالم الكتب.

٢٧. الفراهيدي، الخليل بن أحمد،(ت ١٧٥ هـ)، العين، سلسلة المعاجم والفهارس،(تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي)، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٩٨٨

٢٨. القرالة، زيد خليل.(٢٠٠٤) الحركات في اللغة العربية، دراسة في التشكيل الصوتي، إربد: عالم الكتب الحديثة.

٢٩. مالبرج، برتيل،(١٩٨٤)، علم الأصوات، تعريب ودراسة عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب.

٣٠. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد(٢٨٥هـ). المقتضب،(تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة)، بيروت: عالم الكتب،(د.ت).

٣١. المطلبي، غالب.(١٩٨٤). في الأصوات اللغوية – دراسة في أصوات المد العربي، العراق: وزارة الثقافة والإعلام.

٣٢. النوري، محمد جواد،(١٩٩٧)، علم أصوات العربية، عمان: مطبوعات جامعة القدس المفتوحة.

٣٣. ـــــ،(١٩٩١)، فصول في علم الأصوات، نابلس: مطبعة النصر التجارية.

٣٤. ابن يعيش، أبو البقاء موفق الدين.(ت ٦٤٣)، شرح المفصل، بيروت عالم الكتب، القاهرة: مكتبة المنتهى،(د.ت).